من ثمرات الفكر

من ثمرات الفكر

أسلوب القرآن

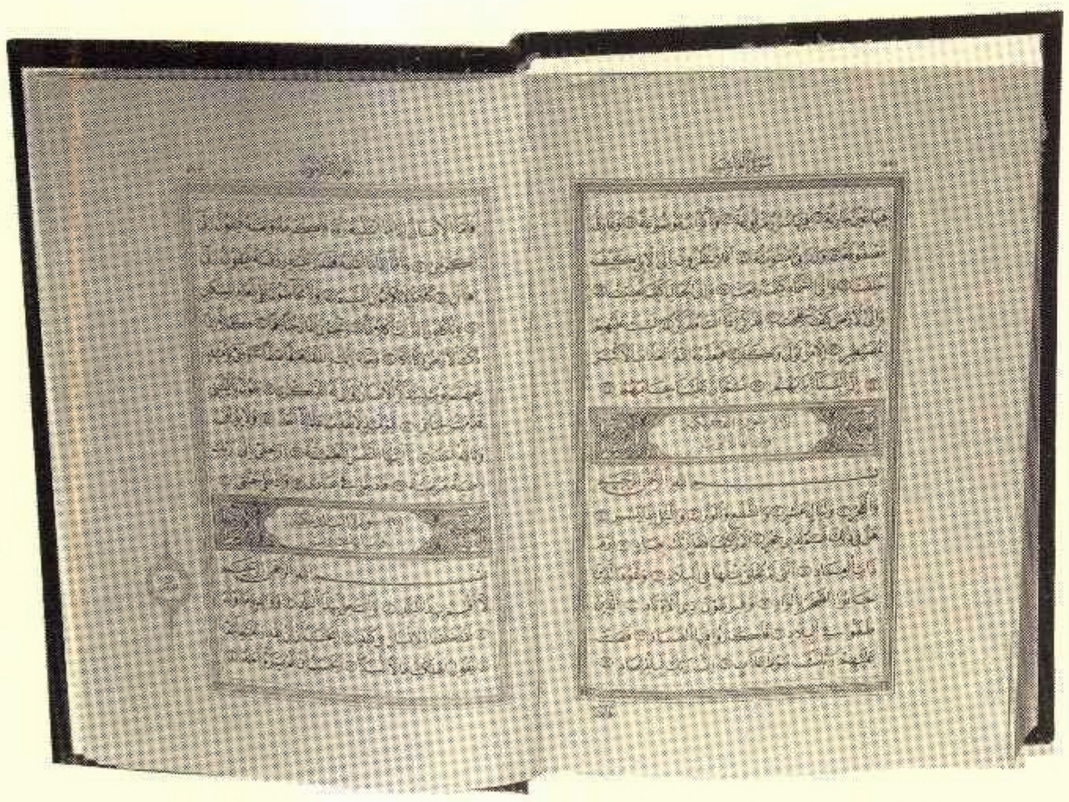

□□ القرآن خاطب الناس جميعا في أجيال مختلفة ، وأقوام تباينت مشاربهم ، ومن أجل أن نعرف بلاغة القرآن في الاستدلال والجـــدل يجب أن نشير بكلمات موجزات إلى أصناف الناس .

إن طبائع الناس متفاوتة ، ومشاربهم مختلفة ، وأهواءهم متنازعة ، ومســـالكهم في طلب الحق متعددة □□

(أ) فمنهـم مـن يصـدق بالبرهان ، ولا يرضيه إلا قياس تام أو ما يجري مجراه ، وهؤلاء هم من غلبت عليهم الدراسات العقلية والنزعات الفلسفية ، وكان لهم من أوقـاتهم ما أزجـوه في دراسات واسعة النطاق ، وعلوم سيطرت عليهم ، فسادهم التأمل الفلسفي والمنـزع العلمي . والمستقـرىء لأحـوال الأمم المتتبـع لشؤون الاجتماع يجد أن هذا الصنف قلة في الناس ، وعددهم محدود بالنسبة لغيرهم ، إذ أن أكثر من في الأرض قد انصرف إلى المهن من زراعة وصناعة ، فما كان له وقت يزجيه في تلك التأملات ، ولهذا أمر الله تعالى نبيه أن يدعوه بالحكمة في قوله تعالى :

﴿ ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَـوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وَجَـادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـــن ﴾ .

(ب) من الناس من غلب عليه مذهب ديني أو غير ديني قد استأثر بلبه ، وسدَّ مسام الإدراك ، إذ استولت عليه نحلة مذهبية فتعصب لهـا . والتعصب يعمي الأبصار ويجعل النفس لا تستسيغ الحق إلا بمعالجات عسيرة . وإن إقناع ذلك لا يكون إلا بـالطب لأدواء النفوس ، وأدواء النفوس أعسر عـلاجاً ، وأعـز دواء من علاج الأجسام .

وهؤلاء لابد لهم من طريق جـدلية تـزيل مـا لَبَّسَ الحق عليهم ، ويتخذ بها قـوة مما يعتقـدون ، إذ يلـزمهم بمـا عنـدهم ، ويفحصهم بما بـين أيديهم ، ويتخذ ممـا يعرفـون وسيلة لإلزامهم بما يرفضون .

وهـذا الصنف من الناس : وان كان أكثر عدداً من الأول ليس هو الجمهور الأعظم ولا الكثرة

□ طبائـع النـــاس متفـاوتـة ، ومشـاربهم مختلفـة ، وأهـواؤهـم متنازعة ، ومسـالكهم في طلب الحق متعددة ...

★★★★★★★★★★★★★

□ في القرآن الكريم يجد المثقـف بـغيتـه ، والفيلسـوف طلبتـه ، والعـامة من الشعـوب دواء نفـوسهم وشفـاء قلـوبهم والحق المبـين الهادي لهم الذي يأخذ بـأيـديهم إلى الـعـزة والرفعة .

★★★★★★★★★★★★★

□ المتـدبـر في القـرآن الكـريـم ، والمفكـر في مناهجه يجـد ما يعلم الجاهل وينبـه الغافـل ويرضي نُهْمَةَ العالم .

★★★★★★★★★★★★★

□ كلَّما ازداد المتبصر في الآيات التي تتعلق بالكون ازداد استبصاراً ورأى علمـاً أسمى مما يدركه الانسان بتجاربه وأعلى مما يهتدي إليه بعقله المجرد .

في الاستدلال والجدل

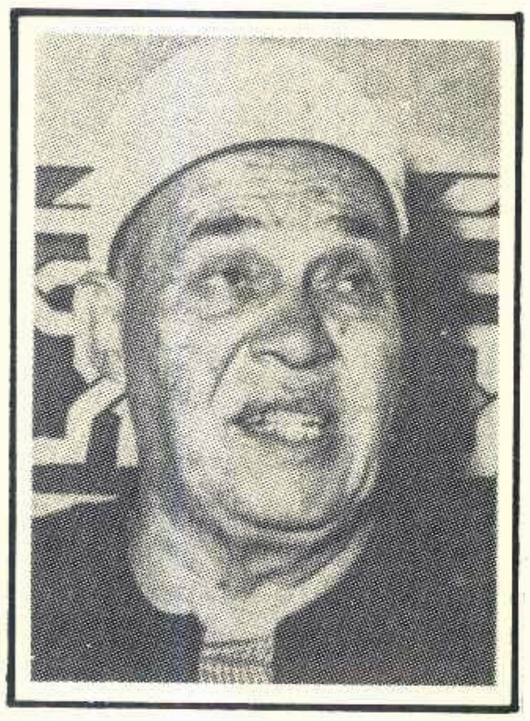

الغالبة بين الناس . ولعلَّه الذي أمرنا الله تعالى بألاَّ نجادله إلا بالتي هي أحسن وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

(جـ) أما الجمهور الأعظم من الناس فليسوا هؤلاء ، ولا أولئك ، بل هو في تفكيره أقرب إلى الفطرة ، فيه سلامتها ، وفيه سذاجتها ، وفيه إخلاصها وبراءتها ، وهو لا يخاطب بتفكير الفلاسفة ، ولا يخاطب بما يخاطب به المتفكرون تفكيراً علمياً . بل يليق به ما التقى فيه الحق مع مخاطبة الوجدان ، وما اختلطت فيه الحقائق اليقينية بما يجعل الأهواء تابعة لها ، والميول خاضعة لمنهاجها ، وما التقت فيه سياسة البيان وبلاغته بقوة الحق ، وليس بما يختص به أهل المنطق ، ولا ما عليه أهل العلوم الكونية ، إنما يخاطب الجمهور الأعظم بالحق ، وبما يغذي الفطرة ، وبما يثيرها ويوجهها إلى السبيل الأقوم .

والقرآن الكريم نزل بتلك الشريعة الأبدية التي جاءت للكافة ، وبعث بها النبي ﷺ للناس جميعاً بشيراً ونذيراً ، فلا تقتصر دعوته على قبيل ، ولا على جيل ، بل هي لكل الأجيال والقبائل والأقوام والألوان ، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها .

ولذلك وجب أن يكون القرآن ، وهو الحجة الكبرى فيه من الأدلة والمناهج ما يقنع الناس جميعاً على اختلاف أصنافهم وتباين أفهامهم ، وتفاوت مداركهم ،

ووجب أن يكون أسلوبه الفكري والبياني ، بحيث لا يعلو على مدارك طائفة بعد بيان النبي ﷺ وأصحابه الذين تلقوا من النبي ﷺ علم القرآن ، وبيانه ،

ويجد العلماء فيه غذاء نفسياً واعتقادياً وخلقياً وصلاحاً إنسانياً ، بل يصل الجميع إليه .

يجد فيه المثقف بغيته ، والفيلسوف طلبته ، والعامة من الشعوب دواء نفوسهم ، وشفاء قلوبهم ، والحق المبين الهادي لهم الذي يأخذ بأيديهم إلى العزة والرفعة .

وكذلك سلك القرآن الكريم ، فالمتدبر لآياته ، والمفكر في مناهجه يجد فيها ما يعلِّم الجاهل ، وينبه الغافل ، ويرضي نهمة العالم . اقرأ قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء : ٣٠) اقرأ هذا وارجع البصر فيها كرتين ألا ترى فيها توجيه الأذهان إلى عظيم قدرة الله تعالى وقوة سلطانه على الوجود كله ، وبيَّن سبحانه كيف اخترع وأبدع على غير مثال سبق ، ويثبت بذلك أنه وحده الأحق بالعبادة ،

وإن القارىء للقرآن من دهماء الناس يرى فيها علماً بما لم يكن يعلم ، قد أدركه بأسهل بيان وأبلغه ، ويرى فيها العالم الفيلسوف الباحث في نشأة الكون دقة العلم وإحكامه ، وموافقة ما وصل إليه العقل البشري لما جاء بذلك النص الكريم مع سمو البيان وعلو الدليل فتبارك الذي أنزل القرآن .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَد خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخَالِقِين ، ثُمَّ إِنَّكُم بَعَدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُم يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٦) إلى آخر الآيات الكريمات .

ثم تدبر هذه الآيات البينات تجد أن الأمي يستفيد منها علماً غزيراً

فوق أنه يعرف منها أن الله سبحانه وتعالى سيبعث النَّاس يوم القيامة ،

فيزداد إيماناً ، كما علم ما لم يكن يعلم ، ويقرؤها العالم بدقائق تكوين الإنسان والدارس للحيوان جرثومة فجنيناً فحيواناً على ظهر الأرض حياً ، فيرى فيها دقة العلم والتكوين ، وصدق الحكاية ، حتى لقد قرأها بعض كبار الأطباء في أوربا ، **فاعتقد أن محمداً ﷺ أعظم طبيب رأته الأجيال السابقة ، فلما علم أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب آمن بأن هذا من علم الله تعالى باريء النسم .**

وهكذا يرى القارىء لكتاب الله تعالى ، وما فيه من أدلة أنه قريب من الأمي يفهمه ويعرفه ، ويعلم منه علم ما لم يكن يعلم ، يدرك منه ما يناسب معرفته ، ويسمو إليه إدراكه ، وما يدركه منه صدق يقيني لا شبهة فيه .

ويرى فيه العالم الباحث حقائق صادقة . ما وصل إليها البحث العلمي الحديث إلا بعد تجارب ومجهودات عقلية .

وكلَّما ازداد المتأمل المتبصر في الآيات التي تتعلق بالكون ازداد استبصاراً ، ورأى علماً أسمى مما يدركه الانسان بتجاربه ، وأعلى مما يهتدي إليه الانسان بعقله المجرد .

الشيخ : محمد أبو زهرة